

فى بنى نبهان

مضى أكثر من عام على امرئ القيس بعد أن هبط بجموع أتباعه وحلفائه على منازل بنى كنانة، وأوقع فيهم وقعته الخاطئة. مضى ذلك العام، وما كان أطوله عليه من دهر، إذ مرت به فى أثناءه حوادث وفواجع، ونزلت به نوازل وكوارث، بعضها أصابه فى صديق حميم، وبعضها أصابه فى أمله الأثير، وبعضها أصابه فى شخصه، وكان ذلك أهونها عليه، وأخفها وقعاً على نفسه.

وعاد امرؤ القيس بعد ذلك العام طريداً شريداً، يضرب فى الأرض وحده، ليس معه إلا يزيد بن معاوية الجون، أخو صديقه الحميم عامر بن الجون، وأخته المسكينة هند بنت حجر التى قدر عليها أن تقاسمه الشقاء.

ولم يكن عنده من المال إلا ما بقى من ذخائر أبيه حجر، وقليل من الإبل ترعى الأعشاب المصححة فى الوديان المقفرة، وهو يقيم فى أرض طيئ مستجيراً ببنى نبهان، بعد أن نبت به المنازل منزلاً بعد منزل، وأزعج عن جوار من استجار بهم صديقاً بعد صديق.

جلس امرؤ القيس وحده عند سفح جبل طيئ فى أمسية من أماسى الصيف الطالع؛ وكان يأوى إلى ذلك الجبل كلما امتلأ قلبه حسرة، وعاوده الشعور بعجزه وقسوة الأقدار عليه، وكان عند ذلك يحس

أن الحياة قد ضاقت به، فلا يرى بها فرجة يقصدها، ولا ركنًا يأوى إليه. لقد طالما ضرب من قبل في الآفاق وحده، ولم يشعر بمثل ما كان يشعر به من الألم واليأس وهو جالس في مجلسه عند سفح الجبل. فقد كان في أيامه السالفة يضرب في الأرض خاليًا من الأشجان، لا يعبأ بغير لهوه وصيده وغزله؛ فلم يكن طالب ثأر خائب، ولم يكن جارًا ثقيل الحمل، تسير العداوة في آثاره، وتشب الحروب حيث حل، ولم يكن مقيدًا بأهل يجب عليه أن يراعاهم، ولا مثقلًا بنساء يحرص على الذود عنهن وحمايتهن.

وكان في ذلك العام المنصرم قد تغير، وحال لونه وتبدل مظهره، حتى كأنه قد تقدمت به السن أعوامًا، فدب الشيب في فوديه، وحل العبوس بين عينيه اللامعتين، فخلع عليهما قسوة بدل الحلاوة. وتجددت صفحة وجهه الفتى، واكتسى شحوبًا بدل الحمرة، وعلاه قلق بدل الابتسام والمرح، وتغير شعره فصار مليئًا بالأحزان، لا تخفف من وحشته إلا ذكريات سعادة غابرة، يرددها فتنبعث في زفرات حرى يرسلها إرسال النواح والبكاء.

وجلس ينظر حينًا إلى الأرض البراح الممتدة تحته، وكأنه هائم فيها على وجهه، لا يستقر على قرار، ولا يتجه إلى وجه، ثم أطرقت حينًا يتأمل ما مر به من الأحداث وهو بين ساعة وأخرى ينتفض انتفاضة، وينطق بلفظ يحدث به نفسه، كأنه ثائر عليها متبرم بها؛ وعاودته ذكريات العام المنصرم كما تتعاقب الصور

على مخيلة الغريق الذى يودع الحياة؛ فهذا علباء بن الحارث الكاهلى، ذلك العدو الكريه، يراوغه ويحاوره، ولا يثبت أمامه فى مكان، منذ ترك منازل بنى كنانة فى ذلك اليوم المنحوس منذ عام، ذلك اليوم الذى جر عليه غضب حلفائه، وألصق به أول وصمة الخيبة والشؤم، وألحق به معرفة نقض العهود، إذ بدأ السير إلى بنى أسد قبل أن تنقضى مدة المودعة التى اتفق معهم عليها.

تذكر ذلك العدو علباء، وهو ينتقل أمامه من ماء إلى ماء لا يستقر فى مكان ولا يثبت له فى موقعة حاسمة، حتى ملت بكر صحبتته، وسئمت تغلب طول السير وراءه، فانفضوا جميعاً من حوله كما تزول الرمال فى يوم الريح العاصف.

ثم ذكر المنذر بن ماء السماء الذى ما زال يتبعه أينما حل، فلا يدع له متنفساً فى رحب الأرض، ولا مستراحاً فى جوار قبيل. لقد كان يطمع أن يطحن بنى أسد بمن اجتمع له من كندة وبكر وتغلب، ثم يرتد بعد ذلك على المنذر فيزلزل ملكه ويهد عرشه؛ ولكن الأقدار عاكسته فتحطمت آماله وخاب تدبيره، وانصرف عنه الجيش الكثيف الذى اجتمع له، فأصبح أمام المنذر القوى وحده رجلاً ضعيفاً منبؤداً مشرداً، ولم يبق له من كل سعيه إلا وصمة الشؤم ونقض العهد.

وما كان أشد هذه الذكري عليه! لقد اضطره العجز إلى أن يلجأ إلى عمرو بن المنذر، عمرو ابن عمته هند بنت الحارث،

راجياً أن يجد عنده الحماية التي عجز أن يجدها عند أحد من العرب، وأذل كبرياءه بأن استظل بابن عدوه وعدو أبيه، ملتتمساً إليه الوسيلة بأمه هند؛ فما كاد المنذر يعرف ذلك حتى بعث إلى ابنه عمرو يأمره بطرده والتخلي عن جواره.

كانت هذه الذكرى مثل طعنة أصابت قلبه، فانفض وغلى الدم في رأسه، ولم يطق السكون الشامل الذي حوله، فنطق بكلمات عنيفة كأنه يحاول أن يجد فيها أنساً من سكاك صوته، أو أن يبعد الذكرى عن ذهنه بهزة من نفسه الحائقة.

ولكن الذكرى عاودته وألحت عليه، كأنها بعض أعدائه الذين كانوا لا يدعون له راحة ولا يسمحون له باستقرار. ومرت في ذهنه صورة ذلك اليوم الذي أحاطت به جنود المنذر، وألجأته إلى الهروب، وليس معه إلا يزيد بن معاوية الجون، أخو عامر بن الجون فنجوا معاً بعد مشقة، ولم يستطيعا تخليص أحد من أهلها سوى أخته هند، ووقع في الأسر من كان معه من بنى آكل المرار، ومعهم جابر بن يحيى التغلبي وامراته العزيزة فاطمة. فاطمة! لقد كان آخر عهده بها عندما هجره حلفاؤه من بكر وتغلب، واتهموه بالشؤم، وانفضوا من حوله كارهين صحبتته. لقد أصابه الخذلان عند ذلك وأسقمه، فقضى أسابيع طويلة في مرض ثقيل الوطأة كاد يقضى عليه. كان جابر زوج فاطمة يحمله في ذلك المرض متنقلاً به من حى إلى حى، وفاطمة النبيلة لا تفارق سيره لحظة، لا تدع خدمته

فى ليل ولا فى نهار. لقد أراد أن يشكرها بعد أن استعاد حواسه، فمد يده إلى يدها، ورفعها إلى فمه فقبلها. كانت تلك هى القبلة التى جادت بها فاطمة عليه مع دمة إشفاق لم تستطع أن تكتمها، ولكنها منذ اطمأنت على حياته فارقت سريره ووكلت خدمته إلى أخته هند وحدها. مسكينة فاطمة! أين لعلها تكون؟ وماذا لعلها لاقت على يد المنذر؟ وفى أية حال لعلها أصبحت بعد أن قتل زوجها المسكين الشهم الذى أخذ بجريرة قومها؟ لقد قتله المنذر الفظيع من أجل أنه زوجها. فماذا لعله فعل بها هى؟ لقد عصر قلبه عصرًا عندما تذكرها وفكر فيما آل إليه أمرها.

ثم ذكر صديقه الوفى، الذى كان عماده وناصره ودليله، عامر بن الجون أبا فاطمة، وتمثله سريعًا فى يوم من أيام حربته مع بنى أسد، وتذكر كيف أحس بالوحدة، عندما وراه فى حفرة عند ماء (المُلحاء)، وأعجلته الهزيمة أن يضع على قبره حجرًا يدل على مكانه إذا حج إليه يومًا ليؤدى إليه حق الوفاء. ثم تذكر كيف أن الأقدار لم تكتف بتحطيمه، فما زالت بأهله تطحنهم وتوقع المصائب فيهم، وتفتك بهم واحدًا بعد واحد: تذكر أعمامه إذ يقتل بعضهم بعضًا فى يوم الكلاب بتحريض المنذر الفظيع، حتى حُرِمَ كل نصير وسُلب من كل ظهير.

مرت هذه الخواطر الحزينة الأليمة فى ذهن امرئ القيس، فغلبه الدمع وتساقط على وجهه وردائه هو لا يعبأ أن يجففه،

ولاحث له الحياة كريهة ثقيلة موحشة وأخذ يردد أبياتاً بصوت خافت ونبرات حزينة، فجعل يقول:

لقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
أرانا مُوضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
إلى عرق الثرى وشجت عروقى وهذا الموت يسلبنى شبابى
ونفسى سوف يسلبها وجرمى فيلحقنى وشيكاً بالتراب
أرجى من صروف الدهر ليناً ولم تغفل عن الصم الهضاب
وأعلم أننى عما قليل سأنشب فى شبا ظفر وناب
كما لاقى أبى حجر وجدى ولا أنسى قتيلاً بالكلاب

وفيما كان يترنم بهذا الغناء الحزين، وقلبه يكاد يتفتت من الألم، سمع هيعة على بعد، فى ناحية من الوادى الذى كان فيه مرعى إبله. فنظر حوله فاتراً، وقد عقله اليأس عن الفزع، وكان الليل قد لف الفضاء فى ظلامه، فلم يتبين شيئاً مما دونه، ثم قام بطيئاً وهو يترنح، وسار نحو خيامه متمهلاً فى خمول واسترخاء، حتى بلغ باب خيمة أخته هند بعد ساعة طويلة. فجفف دموعه وأصلح ما استطاع من شأنه، ثم تكلف التماسك والتجلد، ورفع ستر الخيمة يريد أن يدخل ليحاول أن يجد عند أخته السلوة التى عجزت الوحدة عن إرسالها إليه؛ ولكنه نظر فى جوانب الخيمة، فلم ير فيها أخته، وناداهها باسمها يحسب أنها وراء الستر،

فلم يجبه أحد. فتعجب وعاد خارجاً يبحث عنها ببصره فيما حوله، فلم يبصرها، فدب فى قلبه دبيب اضطراب، وذهب مسرعاً نحو الخيام القريبة، حيث كان يقيم بعض بنى نبهان من قبائل طيى، فوجد الخيام خالية إلا من صغار وعجائز من النساء. فزاد قلقاً، وذهب خياله إلى تلك الهيعة التى سمعها وهو معتزل عند الجبل، وخشى أن يكون قد حل به مصاب جديد من إغارة بعض أعدائه عليه وأن تكون هند قد مسها سوء، فأقبل على امرأة قريبة منه، فسألها عن هند وعن أهل الحسى، فعلم منها ما كان: أغار قوم على الحسى فى غبش المساء، فطردوا الإبل، وأسرعوا يسوقونها وعاد رعيانها يصيحون فزعين، فخرج الرجال فى آثار المغيرين لاسترجاع الإبل، وخرج النساء وراءهم إلى أطراف الوادى يتنسمن الأخبار.

فصاح امرؤ القيس يسألها: «وهند؟».

فنزطت إليه المرأة متعجبة، وقالت كأنها ساخرة:

«أليست مع النساء؟».

فلم يجب امرؤ القيس، وأسرع زاهباً إلى الفضاء فى طرف الوادى، وقلبه يخفق اضطراباً. فقد آل به الأمر بعد تطوافه إلى أن يغير العدو على إبله فيسوقها، وليس معه من يمتنع به إلا هؤلاء الذين حل بينهم لاجئاً، كأنه قاتل خلعه قومه، أو طريد ذليل يطوف بالأحياء لائذاً مستكيناً. وخرج على خيمة ابن عمه يزيد، فلم يجده بها، فأسرع إلى مناخ رواحله يطلب إحداها ليذهب فى أثر القوم،

فوجد المناخ خاليًا. فامتلاً قلبه حنقًا وقلقًا، وذهب مسرعًا في الفضاء وهو حائر لا يدري أين يتجه، فسمع عن بعد صوت نساء يتعالى في صخب مضطرب، فقصده نحو الصوت حتى بلغ جمعهن، فجرى إليهن وهو يصيح في فزع: «هند!». فأجابته أخته بصوتها الرقيق، وقد غلبت عليه رنة الحزن: «أخي!».

وأسرعت إليه فتلقاها في صدره فاتحًا لها ذراعيه ومال على رأسها، فقبله قائلاً: «حسبى أنك سالمة».

ثم سألها عن الأمر، فقصت عليه القصة الأليمة:

كانت في خيمتها في المساء، فسمعت صيحة الرعيان وهم يستصرخون القوم للنجدة، فخرجت نحوهم، ورأت نساء بنى نبهان قد تجمعن من بيوتهن ووقفن يملأن الجو صياحًا، ويتحدثن بإغارة بنى زيد على إبل امرئ القيس، ورأت الرجال يركبون سراعًا في أثر المغيرين، فذهبت مع النساء مندفعات مع فرعهن، فسأل امرؤ القيس في لهفة: «ويزيد بن معاوية؟».

فقالت هند: «ركب فرسك الشقراء وسار مع القوم».

فتلفت حوله مضطربًا نحو مناخ الرواحل ثم سألت هندًا بغير أن ينظر إليها: «وأين الرواحل؟».

فقالت هند في أسف: «ركبها خالد النبهانى في جماعة من قومه وخرجوا في أثر بنى زيد».

فوقف امرؤ القيس لحظة وهو صامت، ثم قال فى شبه بأس:
«إذا فلنذهب إلى المنزل».

وأخذ بذراع أخته، وعاد معها إلى خيمته وهو مطرق يملؤه
الأسى والشعور بالعجز، وتثور نفسه ولا يجد لثورتها متنفساً.
وقضى صدر الليل مع أخته فى حديث متقطع، وهو يتكلف
إظهار الهدوء وقلة الاكتراث بما كان، ويحاول جهده ألا يعرج فى
الحديث على شىء مما حدث. وكانت هند تجتهد مثله أن تخفى ما
ساورها من الجزع، وما داخلها من شعور بالذلة والضعف. وأوشك
الليل أن ينتصف، ولم يرتفع صوت يدل على عودة الذين ركبوا
فى أثر المغيرين، فتظاهر كل من الأخوين أنه يريد النوم، وكل
منهما يريد بذلك إشفاقاً على صاحبه من تطاول السهر؛ فقام امرؤ
القيس إلى خيمته، وقامت هند إلى مخدعها؛ ولكنهما قضيا سائر
الليلة فى وحدة مضطربة مؤرقة، يترقبان طلوع الفجر، ولا يكادان
يحسبان أن ليلهما نهاية. ثم مضى الليل بطيئاً حتى انبج الصبح،
فقام امرؤ القيس وخرج من خيمته، وأخذ يجيل بصره فى أطراف
الأفق، وهو لا يستقر فى مكان، متردداً بين رؤوس التلال وبطون
الوديان، حتى طلعت الشمس، وانبعث شعاعها الرفيق يمسح
أطراف الربى مما عليها من الغدى اللامع، وهب نسيم الصباح
رخياً كما ينهض الراقد الفاتر من مرقدته؛ فعادت إليه نفسه،
ودب فيه شىء من النشاط، وبدأ يحس بعض نشوة القوة والأمل.

وتحرك فيه شجن هادئ، فسار فى الفضاء كما كان يسير منذ أعوام،
يتملى بحسن إشراق الشمس، ويملاً صدره من الهواء البليل الصافى.
وجعل يتغنى لنفسه ناسياً كل ما كان يحيط به من هم وكره، وعاش
لحظات فى خياله يضرب فى عالم الذكريات وهو ينشد:

فإن أمس مكروباً فيا رب بُهمة كشفت إذا ما اسودَّ وجه الجبان
وإن أمس مكروباً فيا رب غارة شهدت على أقب رحو اللبان
وغيث من الوسمى حوِّ تلاعه تبطنته بشيظم صلتان
مكر مفر مقبل مدبر معاً كتيس ظباء الحلب العدوان
إذا ما جنبناه تأود متنه كعرق الرخامى اهتز فى الهطلان

وفيما هو فى إنشاده حانت منه التفاتة إلى جانب الأفق، فرأى
فارساً مقبلاً يسير فى غير عجلة، فوثب قلبه فى صدره وأسرع
إلى رأس ربوة وجعل يتأمله، فعرف أنه يزيد بن معاوية. وعرف
من بطء سيره أنه كان مقبلاً بقلب ثقيل. فسار نحوه ليلقاه حتى
إذا ما صار قريباً منه نظر إليه فى تلهف ظاهر وصاح يسأله:
«وأين أصحابك؟».

فصمت يزيد لحظة، ثم أجاب بصوت حائق: «ما هم لى بصحاب».
فعلم امرؤ القيس من هذا الرد ما وراءه. ووقف حتى أتى إليه
يزيد، وسارا معاً عائدين إلى المنازل فى صمت ووجوم؛ وكانت
هند أول من لقيها، فنظرت إلى وجهيهما وأدركت من مظهرهما

أنهما عائدان بالخبيبة، فلم تسألها، وسارت إلى جانب أخيها مطرقة حتى بلغوا الخيام، واتخذ كل من الرجلين مكاناً على نشز من الأرض، وجلست هندت تحت قدمي أخيها على الرمل، وانصرفت إلى مغزل في يديها تشتغل به عن الهم الذي ملأ صدرها.

لم يعد بنو نبهان إلى الحى إلا عصر ذلك اليوم، وكانوا يمشون في كلال، وخالد يسير أمامهم يخبط الأرض برجليه الغليظتين، ويتكفأ بقامته القصيرة مطرفاً برأسه الضخم في حيرة بادية، وصفرة من الخجل تعلق جبينه الناتئ، زادت وجهه قبحاً على قبحه.

سمع امرؤ القيس بعودة القوم فخرج من خيمته مع يزيد بن معاوية، ليسمع ما يحملون من قصتهم مع العدو، فوقعت عينه على وجه خالد وهو يسير متردداً كاسفاً، ووقف يتأمله لحظة فاتحاً عينيه في دهشة كأنه لم يره من قبل تلك الساعة ثم انفجر ضاحكاً ضحكة عالية طويلة، وارتد إلى الوراء خطوة وهو يقول: «تعجبني مشيتك يا خالد».

فنظر إليه يزيد متعجباً، فوقف بنو نبهان مبهوتين، وقد امتزج على وجوههم الغضب بالتعب والخجل، ومضت لحظة طويلة قبل أن يتكلم خالد رداً على هذه السخرية القاسية، ثم رفع رأسه حانقاً، واتجه إلى امرئ القيس فقال في دفعة كصرخة الجريح: «وماذا أعجبك من مشيتي؟ أتسخر مني إذ أسعى في شأنك أيها الرجل؟».

فعاد امرؤ القيس إلى الضحك قائلاً: «لقد ذهبت راكباً وعدت على قدمين تمشى كما تمشى الأتان الحائرة وهي تدفع عن ورود الماء». فصاح به خالد: «يا لك من وغد!».

فعاد امرؤ القيس إلى ضحكه وصاح: «دع عنك شأنى أيها القصير الغليظ، وقل لى أين ذهبت رواحلى؟».

فارتاع يزيد من قول امرؤ القيس، وأسرع إلى جانبه فأمسك بذراعه يهدئه خوف أن يتحول الأمر من خصام وسباب إلى عراق وقتال، ثم اتجه إلى خالد فوقف أمامه وقال له يحاول استرضاءه: «لا بأس عليك يا أخى، فانصرف الآن مشكوراً على سعيك».

فاندفع امرؤ القيس عند ذلك صائحاً يعيد قوله متجهاً إلى خالد: «خبرنى أين ذهبت برواحلى؟ دع عنك الإبل التى سلبها المغيرون من مراعيها، فهذا أمر لا بدعة فيه، دع هذه فلسست أحدثك عنها. ولكن خبرنى كيف أخذوا الرواحل من تحتك، ومن تحت أصحابك أيها الحُرقة الغليظ؟ كيف نزعوها من بين ساقيك الغليظين؟».

وما كاد يفرغ من قوله، حتى اندفع خالد نحوه فى غضبة وحشية، ودفع يزيد أمامه فى هياجه.

فأسرع امرؤ القيس مرتدداً إلى الوراء خطوات، وجرّد سيفه وصاح به قائلاً: «قف مكانك قبل أن أضع هذا فى صدرك».

وكان مظهره عند ذلك ينم عن اليأس والحنق الثائرين فى نفسه. كان وجهه مقلصاً مرعباً، وعيناه جاحظتين محمرتين وأوداجه

منتفخة. فوقف خالد وهو لا يكاد يستطيع النطق وجرده سيفه عازماً على قتال ذلك اللاجئ الثائر الذى يسبه فى عقر داره هذا السباب المقذع.

وقد حدث ذلك كله فى لحظة قصيرة لم تمكن أحداً من التدخل، ولم تدع فرصة لأحد لكى يحول بين الرجلين، فأسرع يزيد واثباً من مكانه نحوهما، وجرى من كان هناك من كل ناحية إليهما، ووقف يزيد فى وجه امرئ القيس فقال فى غيظ وتوسل: «هذا صدرى فاطعنه إذا شئت. فلن تصل إليه قبل أن تقتلنى».

وكان فى ثبات قوله وقوة صوته ما أعاد إلى امرئ القيس بعض رشده، فتردد ونظر إليه فتقابلت عيناها.

وكان فى نظرة يزيد ما جعله يغض من نظرتة الهائجة.

وكان بنو نبهان قد اجتمعوا عند ذلك حول خالد، وأمسكوا بسيفه فنزعه من يده، وجعلوا يذكرونه بما يجب عليهم، نحو رجل حل جازاً عليهم وأقام عندهم ليس له ناصر عليهم، ثم انصرفوا به يجذبونه جذباً حتى بعدوا به ذاهبين إلى مضارب خيامهم فى الوادى المجاور.

فأغمد امرؤ القيس عند ذلك سيفه، وسار يزيد يقوده قابضاً على ذراعه حتى بلغا الخيمة فدخلاها، ورمى امرؤ القيس سيفه إلى ناحية منها ثم ارتمى على أريكة خائراً، وأكب على وجهه، وعاودته تلك النوبة الشديدة التى كانت تعتربه، واستخرط فى البكاء.

فى مساء ذلك اليوم ذهب امرؤ القيس إلى خيمة أخته ينبئها بما عزم عليه من مغادرة جوار طيئ، والسير مرة أخرى فى الآفاق يلتمس جواراً جديداً، فوجدها تحلب فرقاً من معزى أتى بها بنو نبهان إليها، بعد أن ذهب إبل امرئ القيس فى جوارهم، فوقف عن بعد يتأمل أخته الجميلة التى نشأت فى عز أبيها وملكه، إذ تقبل على الماعز تتملقها وتتلطف بها لكى تدر ألبانها، وهى تملأ الفضاء ثغاءً وتدفع بساقيها وتضطرب برأسها. فخفق قلبه خفقة أحس منها كأنه انخلع من صدره؛ ولكنه تمالك نفسه وتجلد، وذهب نحوها متكلفاً النشاط والمرح، ووقف إلى جوارها، فنظرت إليه مبتسمة وقالت له فى سرور تعجب منه: «أرأيت كيف لم تقطر قطرة من لبنها على الأرض؟».

فمال امرؤ القيس ومسح على رأسها عاطفاً، ثم ألقى إلى جوارها يساعدها على الحلب، ويسند لها القعب خوف أن يندلق ما فيه؛ ثم جعل يترنم فى مرح على وقع أزر اللبن فى الإناء، فقال:

إذا ما لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلّتها العصى
فتملاً بيتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع ورى

ولما انتهت هند من حلبها حمل امرؤ القيس القعب وذهب به إلى الخيمة، وهند فى آثاره، وفى قلب كل منهما شجن يحاول أن يخفيه عن صاحبه.